حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثامن . شوال ١٤٣٩هـ / تموز ٢٠١٨م

٨

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

التحولات الثقافية في المجتمع الكوفي

من تولي الإمام علي(عليه السلام) الخلافة حتى مقتل الإمام الحسين(عليه السلام)

الأستاذ المساعد الدكتور نعمة دهش فرحان الطائي

جامعة بغداد - كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية

توطئة

يُعرف المجتمع بأنَّه جماعة من الناس يعيشون في جبر اجتماعيٍّ واحد من حيث الحاجات، وتحت تأثير عامل مشترك من حيث العقائد والأحداث، وبذلك يتلاحمون ويترابطون ضمنً حياة اجتماعية واحدة، تجمعهم لغة تفاهم واحدة. هذه اللغة عبر عنها ابن مسكويه قائلا: «إنّ السبب الذي احتيج من أجله إلى الكلام؛ أنَّ الإنسان الواحد لما كان غير مكتف بنفسه في حياته، ولا بالغ حاجاته في تتمة بقاء مدته المعلومة، وزمانه المقدر المقسوم؛ احتاج إلى استدعاء ضروراته في مادة بقائه من غيره، ووجب شريطة العدل أن يعطي غيره عوض ما استدعاه منه في المعاونة التي من اجلها قال الحكماء: «**إنَّ الإنسان مدنيٌّ بطبعه**» وهذه المعاونات والضرورات المقتسمة بين الناس هي التي بها يصح بقاؤهم، وتتم حياتهم، وتحسن معايشهم... فلم يكن بد من أن يبزع إلى حركات باصوات دالة على هذه المعاني بالاصطلاح ليستدعيها بعضُ الناسً منً بعض، وليهاون بعضهم بعضاً، فيتم لهم البقاء الإنسانيّ وتكمل فيهم الحياة البشرية»[1]، وبذلك تشكل اللغة العالم المعرفيّ للإنسان، فهي الأساس في تشكيل أنماط سلوكه، وطرائق تفكيره، وطموحاته، ومثله، ونظرته إلى الآخرين، وجوّه العقليّ والثقافي[2].

تمثل ثنائية (الرضا والسخط) مقياس الوحدة في المصير، في مجتمع الكوفة، الذي تنطبق عليه معايير هذا المقياس، فإذا رضي الناس بعملٍ - وإن أتى به واحد منهم - فهم مشتركون في حكمه، وكذلك الحال عند اجتماعهم على السخط فيما يخصُّ عمل أخر، «إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا، فقال: فعقروها فأصبحوا نادمين»[3].

وهذه سنةٌ كونيةٌ، إذ ينسب العمل الصادر من فرد إلى مجتمعه، وكذلك ينسب العمل الصادر من جيل إلى جيلٍ آخر، وذلك فيما إذا كان لهم جميعًا فكرٌ اجتماعيّ واحد، وإرادة اجتماعية واحدة، فيوصفون حينها بأنَّهم ذوو روح اجتماعية واحدة.

ومن هنا نود أن نقف على التحولات الثقافية لمجتمع الكوفة في المرحلة التاريخية الحاسمة منذ عهد الإمام علي عليه السلام وحتى مقتل الإمام السبط الحسين عليه السلام عبر مبحثين، هما:

المبحث الأول

التحولات الثقافية في زمن الإمام علي عليه السلام

تتعدد تعريفات الثقافة بتعدد المدارس والأفراد الذين بحثوا في مفهومها، بل إنَّ شبح التعريفات ألقى بردائه على جميع الذين ينوون الكتابة عن الثقافة، إذ: «إنَّ مفهوم الثقافة هو مفهوم سيميائيّ، وإنَّ الإنسان هو كائن عالق في شبكة من الرموز، نسجها بنفسه حول نفسه، وحول العالم المحيط به. فالثقافة إذن تتمثل بالعادات والتقاليد والأعراف والنظم التي بلورها، وتبناها.

وعادةً تتمدد الموجة التثاقفية على مساحات واسعة من المجتمع، بحيث تفرض نفسها على أفراد المجتمع بقوة التاثر،

(١) علم اللغة الاجتماعيّ/ المدخل، د.كمال محمد بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط/١، ص/٢٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه.

(٣) موسوعة مقتل الإمام الحسين عليه السلام السيد محمد حسين المقرّم (ت/١٩٧١م)، دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع، ط/١، بيروت، (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م) ص/٦٥.

وسلطة الفكر، فهي ليست بأيديولوجية، ولا حتى مذهب، كما أنها ليس نزعة أو تيار يتلاشى مع الزمن، بل إنّها قبل هذا وذاك، حس مشترك، ومن هنا ظهر خطورتها على المجتمعات قديمًا حديثاً.

وحيث كانت كربلاء ضمن الكوفة، يتشابه أفرادها من حيث الماهية والأهواء، في زمن الإمام علي عليه السلام حتى مقتل الشهيد السبط الحسين عليه السلام، فإنّ الناس فيها صنفان، منهم من اتبع سبيل الصالحين، ومنهم من اتبع سبيل الغاوين، فنشات بين هؤلاء وهؤلاء أفكار وثقافات وسلوكيات ومفاهيم، أسس لها الهُداة والغواة، وأفرادها سلكوا مسالك تلك المعطيات؛ فمنهم من انتحل هذه الثقافة، ومنهم من انتحل تلك الثقافة!.

تلك الثقافة المغايرة تحتم على العقل البحثيّ أن ينظر في سلوك هذا الإنسان، مصلحًا كان أم مفسدًا، في ضوء أنعام النظر في ثقافته ونشأته الاجتماعية، ودراسة أنماط هذه الثقافة ومفاهيمها، ومنشئها وآثارها.

- التعريف بمجتمعي (الكوفة وكربلاء):

ذكر ياقوت الحمويّ في معجمه أنّ كربلاء بالمد حول اشتقاقه من كربلة رخاوة في القدمين، جاء يمشي مكربلاً، وعلله؛ لرخاوة أرضها وتربتها، ونقاء حنطتها، والكربل اسم نبت الحماض، وقيل تسمية كربلاء تعود في جذورها إلى العهد البابليّ، وهي مشتقة من (كرب) أي: مصلى، و(آل) أي: الإله عند الآراميين الساميين، أي: يكون معناها: (مصلى الإله) وقيل: (كور بابل) التي ترجع إليها التسمية، ومن المحتمل أنّ المسلمين خففوا لفظ كربلاء من كور بابل[1].

يعود تاريخ المدينة إلى العهد البابليّ، وكانت هذه المنطقة مقبرة للنصارى قبل الفتح الإسلاميّ، وهنالك أسماء أخرى تُطلق على أرض مصرع الإمام الحسين(عليه السلام)، هي إمّا أسماء عامّة للمنطقة التي منها كربلاء، فأطلقت من باب إطلاق الكلّ على الجزء كإطلاق الطفّ على كربلاء، أو هي أسماء لقُرىً مجاورة لكربلاء، فأطلقت أسماؤها على كربلاء أيضاً، ربّما من باب المجاز أو لعلاقة القرب والجوار كإطلاق نينوى أو الغاضرية على كربلاء، أو هي أسماء كانت تُطلق على أرض كربلاء في غابر الأزمان، فوردت أيضًا في لسان الروايات، كما في إ طلاق عمورا على كربلاء، وأهمّ هذه الأسماء: الطفّ أو الطفوف، ونينوى، والنواويس، والغاضرية، وعمورا، وأرض بابل، وشطّ الفرات، وأرض العراق، والحائر والحَيْر، وظهر الكوفة.

(١) ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، ج٢٢٩/٧.

أخرج ابن قولويه بإسناده، عن سعيد بن عمر الجلاّب، عن الحارث الأعور قال: قال عليٌّ عليه السلام «بابي وأمّي الحسين المقتول بظهر الكوفة، والله كأنّي أنظر إلى الوحوش مادّة أعناقها على قبره من أنواع الوحوش يبكونه ويرثونه ليلاً حتّى الصباح! فإذا كان ذلك فإيّاكم والجفاء»[2].

أما الكوفة؛ فأنّها أسّست الكوفة إبان نهضة الإسلام الكبرى، حين كان المسلمون ينطلقون إلى الفتوحات، فاختاروها لتكون قاعدةً ومقرًا للقيادة، وكان لهم من مناخها المتميز بسماء مجلوة، وماء عذب، ونسيم ساحر، ما وَفَّرَ لها شروط الراحة والاستقرار، فكانت (كوفة الجند)، وهذا مبدأ تكوينها التاريخيّ. وقلب الكوفة هو مسجدها العظيم، مصلّى الأنبياء عليهم السلام والقطب الذي تحلّقت حوله القبائل العربيَّة، تلتمس فيه فخرًا إلى فخرٍ، لتصبح الكوفة معه (كوفة القبائل) أيضًا.

- الكوفة زمن الإمام علي عليه السلام:

اختارها الإمام عليه السلام الكوفة عاصمة لخلافته، وقد اتخذت خطبه عليه السلام نمطين من السلوك تبعًا لمرحلة خلافته فيها، تمثل النمط السلوكيّ الأوّل بالثناء والمدح، وكان ذلك في بداية خلافته، حينما استنصرهم عليه السلام لقتال الناكثين في معركة الجمل، بعد ما تمادى هؤلاء في معارضتهم وعصيانهم، وتمردهم على الشريعة والقائد الحق.

أراد الإمام أن يَعُدَّ العُدة لمواجهة الأخطار المحدقة، فوجد أنّ المدينة المنورة لا تتوافر فيها عوامل النجاح العسكريّ والسياسيّ، بعكس الكوفة التي امتازت بمزايا إستراتيجية وعسكريَّة، جعلت الإمام يخاطبهم لنصرته، حين خرج من المدينة إلى البصرة لمقاتل الناكثين، فوجه كتابًا إلى أهل الكوفة، قال فيه: «**مِنْ عَبْدِ اللَّـهِ عَلِـيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ جَبْهَةِ الْأَنْصَارِ وَسَنَامِ الْعَرَبِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ، حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ. إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرُ اسْتِعْتَابَهُ، وَأَقَلُّ عِتَابَهُ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ، وَأَرْفَقُ حَدَائِهِمَا الْعَنِيفُ، وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ، وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ، وَلَا مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا، وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمِرْجَلِ، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ. فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**»[3].

(٢) كامل الزيارات، ص/١٦٥.

(٣) نهج البلاغة، خطبة ١/ ٣٦٤.

إنَّ نمط سلوك الإمام في هذه المرحلة تمثَّل في استنهاض همم أهل الكوفة، لنصرته في معركة الجمل، فاظهر النصُّ عبارات ذات مضامين اجتماعيَّة، مثل: (جبهة الأنصار، وسنام العرب)، الدالة على الرفعة وعلو الشان؛ لأنَّ (جبهة الأنصار) مأخوذةٌ من جبهة الإنسان، وهي أعلى أعضائه، فضلاً عن أنَّ لفظة (الأنصار) هنا تعني: (الأعوان)، ويمكن أن يُراد بها هنا: (الجماعة)، فإنَّ الجبهة في اللغة تعني الجماعة، ويمكن أن يُراد بها سادة الأنصار وأشرافهم[1]، ويبدو للباحث أنَّ المراد هنا جميع أهل الكوفة لما رأيناه من توجيه الخطاب لأهل الكوفة في البدء حين افتتح كلامه بقوله: (مِنْ عَبْدِ اللَّـهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ)، وهو خطاب شامل، يلائم الغرض العام من الكتاب.

ولعل الإمام قالَ: (جبهة الأنصار) ولم يقلْ الجماعة أو غيرها ذلك مناسبة لقوله: (فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ) ليدلّ على أنَّ المجتمع الإسلاميّ بني على أساس تلك الطليعة الأولى من المهاجرين والأنصار، وما تنطوي تحته من مبادئ الأخوة الإيمانية، ولاسيّما حينما تكون تلك الأخوة في أوجّ حالاتها عند النصرة والاستغاثة، وعبارة: (فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ) تبعث على التواضع أمام الجماعة المؤمنة، فحينما يخاطب مُستغيثًا بجبهة الأنصار، وهو فرد واحد من تلك الجماعة المهاجرة في سبيل الله، فمن الطبيعيّ أنْ تكون تلبية النداء من جبهة الأنصار في أوجّها؛ لأنَّ المُستغيث فردٌ وليس الجماعة كلّها، فتكون حاجته إلى النصرة أشدَّ وأعظمَ.

إنَّ في ذلك من التخلّص والتبرؤ ما لا يخفى على المتامل، فإنَّهُ لم يُبقِ عليه في ذلك حجة الطاعن، إذ جعل نفسه عليه السلام واحدًا من عُرْض المهاجرين، الذين هم أهل الحل والعقد، وإنّما كان كلامه عليه السلام حجة على السامع.

ولكي تكتمل الصورة لأي مجتمع ناجح لا بُدَّ من توافر ثلاثة مقومات أساسية، هي: (القيادة، والقاعدة الجماهيريّة، والأرض)، وقد تمثلت في المجتمع الإسلاميّ الأوّل بالرسول صلى الله عليه وآله وخلفائه، والجماهير المؤمنة، والمدينة المنورة)، فالمدينة المنورة وما تمر به من أحوال سيئة واضطرابات، جعل الإمام يذكرها في خطابه لأهل الكوفة؛ لأنّها الركن المهم في مقومات المجتمع الإسلاميّ، إذ قال الإمام واصفًا حالها: (واعلموا أنّ دار الهجرة قد قلعت باهلها وقلعوا بها) أي فارقت أهلها وفارقوها، فالباء في الموضع الأول زائدة، وفي الموضع الثاني بمعنى (من) ويكون الكلام: قلعت أهلها وقلعوا منها، إشارة إلى الاضطراب وعدم الاستقرار، بسبب الفتنة التي ضربت أطنابها المجتمعات الإسلامية، كما وصفها الإمام عليه السلام بقوله: (وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ)، وكما نبّه الإمام عليه السلام على خطر الفتنة على المدينة المنورة، كذلك نبّه على الخطر الذي يحدق بالخلافة، فقال مستنجدًا: (فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ).

كان موقف الإمام من أهل الكوفة في بداية خلافته على هذا النحو، ونجح بنمطه السلوكيّ هذا في استنهاض هممهم، وقد تحقق الغرض من استنهاضهم بعد انتصار الإمام عليه السلام في معركة الجمل، ويؤكد هذا القول ما جاء عنه عليه السلام من قول: «... وَجَزَاكُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ»[2].

وذكر ابن أبي الحديد أنَّ قوله: (من أهل مصر) نصب على التمييز وتقديره: وجزاكم الله متمدنين أحسن ما يجزي المطيع، وإنْ كان التمييز هنا قد جاء مشتقًا، فإنَّ العرب أجازت مجيء التمييز مشتقًا، قال الأعشى:

بانت لتحزننا عفاره

يا جارتا ما أنتِ جاره[3]

أما (ما)؛ فيجوز أن تكون بمعنى (الذي) ويكون قد حذف العائد إلى الموصول، وتقدير الكلام: أحسن الذي يجزي به العاملين[4]، والشاهد هنا أنَّ السبك والتاويل والحذف أمارات على المناحي الاجتماعيَّة في لغة العرب، وأساليب متعارف عليها بين المرسل والمتلقي في لغة التخاطب.

أما النمط السلوكيّ الآخر، فتمثل في مرحلة خلافته الأخيرة بالتوبيخ والزجر والتعنيف، دلالة على موت إرادتهم، إذ يقول عليه السلام في إحدى خطبه: «**أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَظْهَرَنَّ**

(١) ينظر: القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت/٧٢٩-٨١٧هـ)/١١٤٦- مادة: (ج ب هـ)، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشيّ، دار أحياء التراث العربيّ، بيروت- لبنان ط٢، (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).

(٢) نهج البلاغة، كتاب/١ /٣٦٥.

(٣) الصحاح، الجوهري ٥٩١/٢.وشرح ابن عقيل ٦٦٨/١.

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة ٢٣٧/٤.

هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لَـأَنَّهُمْ أَوْلَـى بِـالْحَقِّ مِـنْكُمْ، وَلَكِـنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صَـاحِبِهِمْ، وَإِبْطَـائِكُمْ عَـنْ حَقِّـي، وَلَقَـدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْـمَ رُعَاتِهَـا، وَأَصْـبَحْتُ أَخَـافُ ظُلْـمَ رَعِيَّتِي، اسْـتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَـادِ فَلَـمْ تَنْفِـرُوا، وَأَسْـمَعْتُكُمْ فَلَـمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرًّا وَجَهْرًا فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا، أَشْهُودٌ كَغُيَّابٍ، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ، أَتْلُو عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَـةِ فَتَتَفَرَّقُـونَ عَنْهَـا، وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَـوْلِي حَتَّـى أَرَاكُـمْ مُتَفَـرِّقِينَ أَيَـادِيَ سَـبَا. تَرْجِعُـونَ إِلَـى مَجَالِـسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ، أُقَوِّمُكُمْ غُـدْوَةً، وَتَرْجِعُـونَ إِلَـيَّ عَشِيَّةً كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ. عَجَزَ الْمُقَوِّمُ، وَأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ، أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَـةُ أَهْـوَاؤُهُمْ، الْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ، صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْـتُمْ تَعْـصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْـصِي اللَّـهَ وَهُـمْ يُطِيعُونَـهُ، لَـوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَـذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ. يَا أَهْلَ الْكُوفَـةِ مُنِيـتُ مِنْكُمْ بِثَلَـاثٍ وَاثْنَتَـيْنِ: صُـمٌّ ذَوُو أَسْـمَاعٍ، وَبُكْـمٌ ذَوُو كَلَـامٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ، لَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ، تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ. يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَـابَ عَنْهَـا رُعَاتُهَـا، كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ. وَاللَّهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَـا إِخَالُكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى، وَحَمِيَ الضِّرَابُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَـنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا، وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَـةٍ مِـنْ رَبِّي وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيـقِ الْوَاضِـحِ أَلْقُطُـهُ لَقْطًا»[1].

امتازت خطب الإمام عليه السلام بأسلوب القسم، حتى أصبح هذا الأسلوب سمةً من سمات شخصيته الخطابية، ولاسيّما حينما يتحدث عن الغيبيات، مثلما جاء القسم هنا بنصرة أهل الشام على أهل العراق، وقد يكون ذلك نابعًا من أمرين:

الأمر الأول: غيبيّ؛ لعلمه بالغيبيات وصلته بالمستقبل.

الأمر الآخر: اجتماعيّ؛ لأنَّ أهل الشام أطوع لأميرهم، ومدار النصرة في الحرب، إنَّما هو على طاعة الجيش، وانتظام أمره، لا على اعتقاد الحق، فإنَّهُ ليس يغني في الحرب أن يكون الجيش محقًا في العقيدة إذا كان مختلف الآراء، غير مطيع لأمر المدبر له، ويستدلُّ على هذه الظاهرة الاجتماعيَّة بما نجده من نصرة أهل الشرك - في الغالب - على أهل التوحيد[2].

يتجسد النمط السلوكيّ عند الإمام في المجتمع الكوفيّ في هذه المرحلة في أوجّ حالاته، حينما يقول عليه السلام «**وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي**»، إذ أصبحوا من حيث البنيويَّة العقليَّة والأسس الانثروبولوجيَّة على ثقافة واحدة، وهي أن يدعو بعضهم بعضًا بالطبائع، وليس بالقول والإشارة فقط فهم في هذه المرحلة النفسيَّة السلوكيَّة أصبحوا لا يراعون الانتباه؛ لأنَّهم فقدوا الإحساس بالحياة، بل تجرؤوا على الله ورسوله وخليفته بأفعالهم وسلوكياتهم، فجاء الفعل (أصبح) في النصّ مقصودًا؛ دلالة على الكشف والتجلي الظاهر الذي لا يغطيه شيءٌ، ولا يستر عليه حجاب من إتباع الرعية نهجًا مخالفًا لنهج المجتمعات الأخرى، فالمعروف أنَّ الرعية تنقم على أمرائها بسبب ظلمهم، والغريب هنا أنَّ الأمير هو من ينقم على رعيته بسبب ظلمهم إياهُ، فكان الإمام كالمحجور عليه، لا يتمكن من بلوغ ما في نفسه، لأنَّ العارفين بحقيقة حاله قليلون، والسواد الأعظم لا يعتقدون الأمر الذي يجب اعتقاده فيه، ويرون تفضيل من تقدمه من الخلفاء عليه، ويظنون أنَّ الأفضلية إنّما هي الخلافة، ويقلد أخلافهم أسلافهم، ويقولون: لولا أنَّ الأوائل علموا فضل المتقدمين عليه لما قدموهم، فضلاً عن أنَّهم كانوا يحاربون معه بالحمية وبنخوة العربيَّة، لا بالدين والعقيدة، لذلك قال عليه السلام (**إِلَى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي**)، فوصف أهل الشام وصاحبها بإسراعهم إلى باطلهم في حين غايره بالمقابلة عندما وصف أهل الكوفة بإبطائهم عن (حقه) لا عن (حقهم)؛ لأنَّهم وأهل الشام على حدٍّ سواء في الباطل.

ومن المضامين الاجتماعيَّة في النصّ وصفه هذا التفرق والتشرذم بـ(أيادي سبا)، وهو مثل يضرب للمتفرقين، وأصل هذا المثل مأخوذ من قوله تعالى عن أهل سبا: ﴿**وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ**﴾ سبا /١٩.

ثم وصف اعوجاجهم عن الحق بظهر القوس المعوج؛ لأنّ (الحنية) في قوله عليه السلام (كظهر الحنية) تعني القوس، و(أعضل المقوّم) أعضل داؤه بمعنى: أعيا.

استعمل الإمام تعابير اجتماعيَّة تتلاءم ونمط السلوك الاجتماعيّ تُجاه المجتمع الكوفيّ، وهذه التعابير مؤلفة من ألفاظ وتراكيب وتشبيهات تعطي معنى التوبيخ والسخريَّة والزجر وسوء الحال مع هذا المجتمع.

إنَّ التغيّر والتَّحول الذي حصل في الأنماط السلوكيَّة للإمام تُجاه مجتمع الكوفة، الذي ظهر على لغته، نابع من عدة أسباب، تختصُّ بالمجتمع الكوفيّ، وهي:

١- دخول الشبهة على عدد كبير منهم عند رفع المصاحف في معركة صفين، فغلب على ظنِّهم أنَّ أهل الشام لم يفعلوا ذلك

(١) نهج البلاغة، خطبة /٩٧/١٤٢- ١٤٣.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة ٥٢/٧.

خدعة وحيلة، بل حقًا ودعاءً إلى الدين، فرأوا أنّ الاستسلام للحجة أولى من الإصرار على الحرب.

٢- منهم من سئم الحرب، وآثر السلم، فلما رأى شبهةً ما، يسوغ التعلق بها في رفض المحاربة وحب العافية، أخلد إليها.

٣- منهم من كان يبغض عليًا عليه السلام بباطنه، ويطيعه بظاهره، فلما رأوا طريقًا لخذلانه، وترك نصرته، أسرعوا نحوه.

والجدير بالملاحظة أنّ الإمام عليه السلام استعمل أسلوب (الفصل والتفصيل) في ذكر خمس خصال مُني بها المجتمع الكوفيّ، فقال مخاطباً إياهم: «يا أهل الكوفة مُنيت بثلاث واثنتين...» ولم يقل خمسًا، لأنّ الثلاث إيجابيّة، أما الاثنتان فسلبيّة، فاحب أن يفرق بين الإثبات والنفي، وعبارة: (تربت أيديكم) كلمة يدعى بها على الإنسان، أي لا أصبتم خيراً، وأصل (ترب) من التراب، أي أصاب التراب، فكأنه يدعو عليهم بأن يفتقروا حتى يلتصقوا بالتراب.

وعبارة: (انفراج المرأة عن قبلها) أي وقت الولادة، وكان الإمام عليه السلام كثيرًا ما يشبه أهل العراق ولاسيما الكوفة بالمرأة الحامل لتقاعسهم عن الجهاد، ومن ذلك قوله عليه السلام «**أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ وَمَاتَ قَيِّمُهَا وَطَالَ تَأَيُّمُهَا وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا**»[1]، ويصف أهل البصرة بـ(جند المرأة)، وذلك بقوله عليه السلام «**كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ وَأَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ رَغَا فَأَجَبْتُمْ وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ**»[2].

أملصت الحامل: ألقت ولدها سقطًا، وهذه العبارة من العبارات السِّياقيَّة التي قيمتها قيمة المثل، التي أخذت قيمتها الدلاليَّة الثابتة على العصور بحكم التوافق الاجتماعيّ، وقيمها: بعلها، وتايمها: خلوها من الأزواج، وهو عليه السلام بهذه التعابير الاجتماعيَّة يصف نكوص أهل العراق حينما شارفوا استئصال أهل الشام وظهور أمارات الظفر ودلائل الفتح، فجنحوا إلى السلم، والإجابة عن التحكيم عند رفع المصاحف، فكان حالهم حال المرأة، التي ألقت حملها إلقاءً غير طبيعيٍّ، فتلقته هالكًا، ومعلوم أنّ الحامل تمرُّ بظروف صعبة جدًا، تجاهد فيها، وتتحمل المشاق والصعاب، فتكفُّ عمّا هو إلى نفسها أقرب، وتمتنع عن كلِّ ما هي إليه أشوق، ممّا يضرها، ويضر جنينها، ففي حركتها مشقة، وفي جلوسها مشقة، وفي نومها مشقة، حتى في صلاتها مشقة، كلُّ ذلك يُعطلُ من قدرات الحامل وهي غير حامل، فإذا بها بعد وضع حملها تضيع جهادها السابق هباءً منثورًا، وكان شيئًا لم يكن، حتى أضحى ما شقيت لأجله، وتحملت العناء بسببه هملاً لم يكن شيئًا مذكورًا، وفي عبارات: (ومات بعلها، وطال تأيمها، وورثها أبعدها) دلائل واضحات على سوء حالها، إذ لم يكن لها ولد، وهو أقرب المخالفين إلى الميت، ولم يكن لها بعل فورثها الأباعد عنها، كالسالفين من بني عم، وكالمولاة تموت من غير ولد ولا من يجري مجراه، ولا نسب بينها وبينه.

وهذا التشبيه يبيّن بوضوح موت الإرادة عند المجتمع الكوفيّ، فالضمير الجماعيّ لهؤلاء اتسم بموت الإرادة، وهو مجموع المعتقدات والمشاعر المشتركة لمجمل أعضاء المجتمع[3]، الذي لم يرَ أمامه سوء الانتصار أو الاستسلام، وبالفعل انقلب على نفسه، وساعد على قتل إمامه عليه السلام نتيجة التآمر والتخاذل.

والجدير ذكره أنّ الإمام لم يكن راغبًا في الخروج من المدينة إلى الكوفة، وإنّما اضطرته أحوال البصرة إلى ذلك، وقد بيّنه الإمام عليه السلام نفسه ذلك، حين قال: «**أَمَا وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُكُمُ اخْتِيَارًا، وَلَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقًا، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ عَلِيٌّ يَكْذِبُ، قَاتَلَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ أَ عَلَى اللَّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ. كَلَّا وَاللَّهِ؛ لَكِنَّهَا لَهْجَةٌ غَبَتْمُ عَنْهَا، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا**»[4].

على الرغم من أنّ أهل الكوفة قد أخفقوا في تحقيق أهداف الإمام علي عليه السلام بنحوٍ عامٍ، إلاّ أنّ هناك شخصيات مثل: كُميل بن زياد، ورشيد الهجريّ، وعمار بن ياسر، وعمر بن الحمق، ومالك الأشتر وعدد قليل من أصحابه عليه السلام قد جسدوا خطبه وأقواله، وقد وصفهم الإمام علي عليه السلام بقوله: «**وَجَزَاكُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ، أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ. فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ**»[5].

المبحث الثاني

التحولات الثقافية في المجتمع الكوفيّ زمن الإمام الحسين عليه السلام

أما الإمام الحسين عليه السلام فقد كان له مع مجتمع الكوفة وقفات في منتهى الدقة، وغاية الوعي، في مجتمع تخللته أمواج متدافقة، وتيارات متدافعة، وعقائد متصارعة، مثّلت المحك الأساسيّ لحركة التاريخ، عبر سلسلة من الأحداث الاجتماعية والوقائع التاريخية التي مرَّ بها المجتمع المسلم.

(١) نهج البلاغة، خطبة / ٧١ /١٠١.

(٢) نهج البلاغة، خطبة / ١٣ /٥٦.

(٣) ينظر: مدخل إلى علم اجتماع الأدب /٨٤

(٤) نهج البلاغة، خطبة/٧١/١٠١

(٥) نهج البلاغة، كتاب/٢/٣٦٥.

وقد قيل في المثل: (**الرجال مخابر وليس بمناظر**) تلك قاعدة اجتماعية عامة، فالأثر يدلُّ على المؤثر دائمًا، فإذا أدركنا هذه الحقيقة، أدركنا عمق شخصية الإمام الحسين عليه السلام وأهدافه وغاياته الاجتماعية من ثورته على الظلم في واقعة الطف، في ضوء ما قاله عليه السلام من خطب وكلمات، تضمنت أحداثًا كلامية، إذ جسدت لغة الحسين عليه السلام المجتمع الذي قيلت فيه، إذ تضمنت التراث الثقافيّ التي اختزله ذهن الحسين عليه السلام بما فيه من مجتمعات صالحة وحركات مصلحة جرت عبر أمكنة و أزمنة متتالية، هذه اللغة التي تمثل صرخات مدوية على الظلم و تنبأ بما سيؤول إليه المجتمع، فقد كان المجتمع متحركًا ساخنًا، يتشابه فيه الأفراد من حيث النوع والماهية؛ لكنهم مختلفون تمام الاختلاف من حيث المبادئ و الإيديولوجية والأخلاق والأهداف والغايات.

وقد شخّص الإمام علي عليه السلام أحوالهم المتغايرة بقوله: «**أيها الناس إنما يجمع الناس الرضا والسخط**»[1]، فالرضا والسخط مقياس الوحدة في المصير، ولاسيما في مجتمع الطف، الذي تنطبق عليه معايير هذا المقياس، فإذا رضي الناس بعمل - وإنْ أتى به واحد منهم- فهم مشتركون في حكمه، وكذلك الحال عند اجتماعهم على السخط فيما يخصُّ عمل أخر، «**إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا، فقال: فعقروها فأصبحوا نادمين**»[2]، وهذه سنةٌ كونيةٌ، إذ ينسب العمل الصادر من فرد إلى مجتمعه، وكذلك ينسب العمل الصادر من جيل إلى جيلٍ آخر، وذلك فيما إذا كان لهم جميعًا فكرٌ اجتماعيّ واحد، وإرادة اجتماعية واحدة، فيوصفون حينها بأنَّهم ذوو روح اجتماعية واحدة، لذا نجد الإمام الحسين عليه السلام يردُّ على كتب أهل الكوفة بقوله:«

بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين

أما بعدُ، فإنَّ هانئًا وسعيدًا قدما عليّ بكتبكم، وكانا أخر من قَدِمَ عليَّ من رسلكم، وقد فهمتُ كلَّ الذي قصصتم وذكرتم، ومقالة جلكم أنّه ليس علينا إمامٌ فأقبل، لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق، وقد بعثتُ إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، وقد أمرتُهُ أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم؛ فإن كَتَبَ إليّ أنَّه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل منكم على مثل ما قَدِمَتْ به عليَّ رسلكم، وقرأتُ في كتبكم: أقدم علينا وشيكًا؛ إن شاء الله، فلعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب، والأخذ بالقسط والدائن بالحقّ، والحابس نفسه في ذات الله، والسلام»[3].

ففي هذا النصِّ ما يؤكد التحول الثقافيّة في بنية المجتمع الكوفيّ؛ لأنَّ الإمام لم يكن على ثقة تامة من نوايا هؤلاء القوم، الذين كاتبوه، وأرسلوا إليه الوفود، ذلك أنَّ التجارب التي مرَّ بها أبوه وأخوه، ترمي بظلالها على صدق دعوة هؤلاء، ويتضح ذلك جليًا ممّا يأتي:

١- عبارة العنوان: (إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين) فبين المؤمنين والمسلمين علاقة عموم وخصوص، فكلُّ مؤمن مسلمٌ، وليس كلُّ مسلمٍ مؤمنًا.

٢- إرسال ثقته مسلم بن عقيل للنظر في أمرهم، وأخذ البيعة والإجماع على بيعته عليه السلام.

٣- وصفه مسلمًا بقوله:(أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي) للدلالة على التلازم الثقافيّ وثباته عند جماعة المتقين، إشارة إلى التحولات والتناقضات التي تصيب هذا المجتمع بين الفينة والأخرى.

٤- اتصاف الإمام العادل بالجمل الاسمية في قوله:(العامل بالكتاب، والأخذ بالقسط، والدائن بالحقّ، والحابس نفسه في ذات الله، والسلام) الدالة على الثبات على دين الحقّ، إشارةً إلى تولي يزيد قيادة شؤون الأمة الإسلامية، وهو لا يتصف بواحدة من هذه الصفات، لذا وجب على الأمة رفض بيعته، وأن يرتضوا بالحسين عليه السلام إمامًا؛ لأنَّ هذه الصفات تمثل جزءًا ثابتًا من بنيته الثقافيّة.

إنَّ الوقوف مع أولئك يُعدُّ بمنزلة الإحياء الواقعيّ لحكومة الإنسان المُستخلَف، والحسين يعلم بأنَّ حكومة يزيد ستعمل بكلِّ إمكاناتها المتاحة؛ لتدمير كلِّ تحرك شعبيٍّ مناهض للظلم والاستبداد، ولذلك أبقى الحسين هذا الاحتمال قائمًا في حسابه، بأن يقوم مرتزقة يزيد وعُماله بإحباط تحركه هذا. وهذا الاحتمال في حدِّ ذاته يُعدُّ مصدر خطر في حال تنفيذه، وهو يعلم كذلك أنَّ الأبواب جميعها سوف لا تكون مفتوحة إمام تحركه، ولعله سيواجه الموت، لذا سعى الإمام عليه السلام إلى تحرير هذه العقول من هذا الانقياد الأعمى للحاكم، حين صرّح بذلك، عند خروجه من مكة متوجهًا إلى الكوفة، قائلا: «**الحمد لله وما شاء الله، ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على رسوله، أيها الناس: خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف،**

(١) نهج البلاغة، خطبة/١٠٥،ص/١٥٣.

(٣) الكامل في التاريخ، ج٢/٥٣٤.، ومقتل الإمام الحسين، الخوارزمي،ج١/١٥٩.

وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشًا جوفًا، وأجربةً سغبًا، لا محيص عن يوم، خط بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذَّ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرُّ بهم عينه، وينجز بهم وعده، من كان باذلاً فينّا مهجته، وموطنًا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحًا إن شاء الله»[1].

إنَّ الذي حدث في مجتمع الكوفة في ولاية زياد ابن أبيه من مظاهر الاضطهاد الفكريّ، والتهجير القسريّ للإنسان من محل سكناه؛ لكونه يفكر بعقله لا بعقل غيره، ويؤمن ويحب بقلبه لا بقلب غيره، يُعدُّ من أبرز عوامل التحول الثقافيّ في بنية المجتمع الكوفيّ، فقد اقتلع ابن زياد العشائر والبيوتات التي تحب علي بن أبي طالب عليه السلام، وتهجيرها إلى خراسان والشام، وجلب العشائر المعادية للإمام علي عليه السلام من البلدان الأخرى، وزجّها في المجتمع الكوفيّ؛ حتى تغيّر التركيبة الاجتماعية للمجتمع، وفرض ثقافة العداء لأهل البيت عليهم السلام فقد ذكر الطبريّ قولاً؛ انفرد به، ولم ينقله عن مؤرخ آخر فيما بعد، يوضح ذلك التنقُّل القسريّ، قال: «ولم تزل سجاح - التميمية، وهي التي أدعت النبوة - في بني تغلب، حتى نقلهم معاوية عام الجماعة في زمانه، وكان معاوية حين أجمع عليه أهل العراق بعد علي عليه السلام يُخْرِجُ من الكوفة المستغرب في أمر علي عليه السلام، ويُنْزِلُ داره المستغرب في أمر نفسه من أهل الشام، وأهل البصرة، وأهل الجزيرة، وهم الذين يقال لهم: النواقل في الأمصار. فأخرج من الكوفة قعقاع بن عمرو بن مالك إلى إيلياء بفلسطين، فطلب إليه أن ينزل منازل بني أبيه، بني عقفان، وينقلهم إلى بني تميم، فنقلهم من الجزيرة إلى الكوفة، وأنزلهم منازل القعقاع وبني أبيه، وجاءت معهم، أي: سجاح التميمية»[2].

فعوامل: (الاغتراب، والتهجير القسريّ، وتنوع الجند من العرب والعجم، والاضطهاد الفكريّ) كلّها تظافرت في حصول هذه الازدواجية التثاقفيّة في المجتمع، التي أدت فيما بعد إلى قتل الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، والتمثيل بهم.

وقد بيّن الأمام الحسين عليه السلام حالهم بقوله يوم الطف:«**أيها الناس: انسبوني من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحلُّ لكم قتلي؟ وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟ أوليس جعفر الطيار عمي؟ أولم يبلغكم قول رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي: (هذان سيدا شباب أهل الجنة) فإنْ صدقتموني بما أقول وهو الحق، والله ما تعمدتُ الكذب منذ علمتُ أنَّ الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من اختلقه. وإنْ كذبتموني فإنَّ فيكم من إنْ سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاريّ وأبا سعيد الخدريّ وسهل بن سعد الساعديّ وزيد بن أرقم وانس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي، أما في هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمي؟»**[3].

إنَّ تكرار عبارة: (أيها الناس) فيه إشارة دلالية إلى أمرين هما:

١-توكيد حال المخاطبين وبيان عقائدهم المختلفة حتى وصل بهم الأمر إلى نكران دين الحسين عليه السلام ونسبه، وهذه العبارة بمنزلة التوكيد التركيبيّ البعيد، لوجود اليوم مَنْ لا ينكر نسب الحسين عليه السلام لكنه ينكر منزلته عند الله ورسوله وأحقيته بالثورة إلى الظلم.

٢-انتقالة خطابية من أسلوب الوعظ والإرشاد والوعد والوعيد إلى أسلوب الحجاج الواضح الصريح زيادةً في التؤكيد وعظيم الحجة على القوم المخاطبين، لذا نجد أنَّ الخطاب قد تحول من الحديث عن الأيديولوجية إلى الحديث عن الهوية، بأسلوب الحجاج الصريح عبر أسلوب الاستفهام التقريريّ، لتاكيد أمرين هما:

الأمر الأول: منزلته عليه السلام فالحسين سيد شباب أهل الجنة.

الأمر الآخر: إنَّ اللغة التي تحدث بها الحسين عليه السلام هنا هي (لغة الهوية)، لذا نجد الأفعال المستعملة في هذه الفقرة من الخطبة المباركة هي من أفعال الهوية وهي: (انسبوني، وارجعوا، عاتبوها، انظروا، هل يحلُّ، ألستُ، أوليس... وسواها) ممّا يدلُّ على أنّ اللغة سلوك خارجيّ تسمح للمتكلم من طريق هذا السلوك أنّ يعين نفسه عضوًا في مجموعة معينة، وهنا المقصود مجموعة (أهل المعرفة)، وكذلك من لغة الهوية يعبر عن ذاته عليه السلام مستشهدًا بحديث النبي صلى الله عليه وآله: (هذان سيدا شباب أهل الجنة)... ومزيدًا في الحجاج حينما عيَّن نفسه وانتسابه إلى النبوة والإمامة: (... ألستُ ابن بنت نبيكم وابن وصيه...) هذا التركيز في التعيين أفاد المبالغة والتؤكيد في الحجاج؛ ليمزج هويته الأُسرية بهويته الدينية، على وفق أسلوب المقابلة التي

(١) أعيان الشيعة، ج ٥٩٣/١.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٥٠٠/٢.

(٣) مقتل الحسين، الخوارزميّ، ج ١/ ٨٨.

سارت عليها منهجية الخطبة.

حدد الحسين عليه السلام هوية المخاطبين الهمجيين، بل أكثر من مجرد تلقيبهم أو تسميتهم، فقد وضع لهم أطرًا من العلاقات، تتغير دائمًا عبر مراحل من الصراع المستمر، يتضمن على حدٍّ سواء أنَّهم مختلفون عن أهل المعرفة، وأنهم مختلفون فيما بينهم أيضًا، وإنْ كان ذلك ليس على نحو التصريح، إنَّما دلَّت عليه عبارة: (أيها الناس) المتكررة في الخطبة، فبعضهم قتل الحسين عليه السلام قتلاً للمبادئ والقيم السامية، وبعضهم قتله بُغضًا بابيه علي بن أبي طالب وبعضهم قتله طمعًا بالغنائم، وبعضهم قتله طمعًا في السلطة، أما عامة القوم الذين شاركوا في قتل الحسين عليه السلام وأصحابه، فهم من (الهمج الرعاع الذين ينعقون مع كلِّ ناعق) فهم إذن ليسوا على أمرٍ واحد، بل كانوا على صيرورة معقدة، تمثلت بكيفية مكثفة من الحقد وتعدد الغايات، فظهرت مشتتة على خاصيتها المختلفة.

فاستعمال أسلوب (لغة الهوية) وسيلة من وسائل الحجاج التي انتهجها عليه السلام في إظهار الفرق بين المتكلم والمتلقين، إذ لم تكن هوية الإمام الحسين عليه السلام مجموعة متغايرة، تعطي وتؤخذ من طرفها، بل كان في صيرورة واحدة ومستمرة مدى الحياة، فالهوية «تخلق من جديد شكلاً لا متناهيًا على وفق قيود اجتماعية مختلفة: (تاريخية واقتصادية...وسواها) وتفاعلات اجتماعية وصدامات وآمال قد يتفق على أنها أكثر ذاتية و فرادة»[1] استعمل الإمام لغة (لغة الأسرية) متدرجًا من الأشرف إلى الشريف، فقال: «انسبوني من أنا، ألست ابن بنت نبيكم، وابن وصيه... و أليس جعفر الطيار عمي؟) تدرج عليه السلام بذكر هويته الأسرية من الأشرف إلى الشريف، فاحتج أولاً بأنَّهُ الوحيد من الأحياء في هذا الكون ابن بنت نبي، وأشار إلى أنَّه ابن وصيه، بوصفه الوحيد من الأحياء ممن نصَّ عليه الحديث باسمه الصريح، أنهُ وصي، فأراد بذلك التفرد بذكر الهوية وشرفها؛ ليبالغ في الحجة على خصومه، ويؤكد على الوصي الشرعيّ الذي أشارت إليه الآية الكريمة: [**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**] المائدة/٣، ثم فصل القول بعد أجماله بقوله: (وابن عمه وأول المؤمنين به... من عند ربه). لتأكيد أسبقيته بالإيمان، وزيادة في هذا التدرج قال: (أوليس حمزة عم أبي... أوليس جعفر الطيار عمي) فاستعمل الاستفهام ليظهر حال المخاطبين وما سوف تؤول إليه الأمور من قتلهم إياه مع أنَّ القتل لهم عادة وكرامتهم من الله الشهادة: ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً**﴾ الكهف/٩.

فضلاً عما رأيناه من تدرج في ذكر الهوية الأسرية لكنها بقيت هوية مدمجة لغويًا (Language Embedded Identities)؛ لأنَّها تعتمد على أدوات رمزية صارمة، كعلاقته عليه السلام بالنبي صلى الله عليه وآله ووصيه مثلاً، ورجالات أسرته في التضحية والمكانة الاجتماعية، كلّ تلك الأدوات الحسية والمعنوية جعلت الهوية الأسرية للحسين عليه السلام هوية مدمجة، لأنَّها ضمت أدوات معنوية، تمثلت بعلاقات تتعاظم شرفًا.

وعلى الرغم من أنَّ مصطلح الهوية المدمجة شاملٌ، غير أنَّهُ ليس لفظيًا؛ لأنَّ الهوية سمة خارجة عن اللغة، لكنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا باللغة، واستعملها الإمام الحسين عليه السلام للدلالة على استقلالية الهوية و تفردها من جهة، وعلى ارتباطها الوثيق بأهل المعرفة والتوحيد من جهة أخرى، أي أنَّها ترتبط أوليًا بمبادئ تبدي سلوكًا غير فعليٍّ خالص، على وفق قيود ثقافية واتجاهات لم تكن مستقلة في التوسط الرمزيّ.

وجه الإمام الحسين عليه السلام خطابًا كان بمنزلة الصعقة الكهربائية لتلك العقول، لعلها تلتفت إلى ما عزمت عليه من قتله مع أهل بيته وأصحابه، وينصاعوا لسلطة الكلمة، فجاء التقريع في هذه الخطبة يطرق الرؤوس المتحجرة بهذه الكلمات: «**تبّاً لَكُمْ أَيَّتُهَا الْجَمَاعَةُ وَتَرَحاً حِينَ اسْتَصْرَخْتُمُونَا وَالِهِينَ، فَأَصْرَخْنَاكُمْ مُوجِفِينَ؛ سَلَلْتُمْ عَلَيْنَا سَيْفاً لَنَا فِي أَيْمَانِكُمْ! وَحَشَشْتُمْ عَلَيْنَا نَاراً اقْتَدَحْنَاهَا عَلَى عَدُوِّنَا وَعَدُوِّكُمْ! فَأَصْبَحْتُمْ أَلْباً لاِعْدَائِكُمْ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ بِغَيْرِ عَدْلٍ أَفْشَوْهُ فِيكُمْ، وَلاَ أَمَلٍ أَصْبَحَ لَكُمْ فِيهِمْ!.**

فَهَلاَّ ـ لَكُمُ الْوَيْلاَتُ ـ تَرَكْتُمُونَا؛ وَالسَّيْفُ مَشِيمٌ، وَالْجَأْشُ طَامِنٌ، وَالرَّأْيُ لَمَّا يُسْتَحْصَفْ؟! وَلَكِنْ أَسْرَعْتُمْ إِلَيْهَا كَطَيْرَةِ الدَّبَى! وَتَدَاعَيْتُمْ إِلَيْهَا كَتَهَافُتِ الْفَرَاشِ! فَسُحْقاً لَكُمْ يَا عَبِيدَ الأُمَّةِ! وَشُذَّاذَ الأَحْزَابِ! وَنَبَذَةَ الْكِتَابِ! وَمُحَرِّفِي الْكَلِمِ! وَعُصْبَةَ الآثَامِ! وَنَفَقَةَ الشَّيْطَانِ! وَمُطْفِئِي السُّنَنِ! أَهَؤُلاَءِ تَعْضُدُونَ؟! وَعَنَّا تَتَخَاذَلُونَ؟! أَجَلْ وَاللهِ غَدْرٌ فِيكُمْ قَدِيمٌ! وَشَجَتْ إِلَيْهِ أُصُولُكُمْ! وَتَأَزَّرَتْ عَلَيْهِ فُرُوعُكُمْ! فَكُنْتُمْ أَخْبَثَ ثَمَرٍ شَجاً لِلنَّاظِرِ! وَأُكْلَةً لِلْغَاصِبِ!

الدَّعِيُّ ابْنُ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ: بَيْنَ السِّلَّةِ وَالذِّلَّةِ؛ وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذِّلَّةُ!، يَأْبَى اللهُ ذَلِكَ لَنَا وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَحُجُورٌ طَابَتْ وَطَهُرَتْ، وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ، وَنُفُوسٌ أَبِيَّةٌ، مِنْ أَنْ نُؤْثِرَ طَاعَةَ اللِّئَامِ عَلَى مَصَارِعِ الْكِرَامِ»[2].

(١) دليل السوسيولسانيات، أندريه تابوري- كيلر، تحرير: فلوريان كولماس، ترجمة: د. خالد الأشهب ود. ماجدولين النهيبي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط/١،٢٠٠٩م، ص/٦٨١.

(٢) مقتل الإمام الحسين، عبد الرزاق المقرم، ص/٢٤٣-٢٤٤

وهكذا أُدخلتْ صفة الشرعية والحاكمية على أبناء البغاء في المجتمع الكوفيّ، فظهرت أنماطٌ من السلوك السلطويّ، جعلت الفرد في المجتمع الكوفيّ، يؤمن بهذه الثقافة، وينقلها إلى أبنائه، فنشأت طبقة من الشباب خلال عشرين سنة على هذه البنيويّة العقليّة والمعطيات الثقافيّة، فهو يستهين بالمحرمات، بل أنَّ مفاهيم المحرمات والمقدسات قد تبدلت عنده كليًا، لذا فهو يرىَ ضرورة الخروج على ابن بنت رسول الله ﷺ وقتاله، بل جعل من التفنن في القتل والشر وسيلة للتقرب لوالي الكوفة البغي[1].

نتائج البحث:

١- استطاع الإمام علي عليه السلام بالوقوف على بنية الذات الجمعيّ أن يتأمل المواقف والأحداث، وأن يختار ما يريد من المقولات الاجتماعيَّة التي تشع من أفقه، من حيث كونه في طليعة الأفراد الذين حاولوا تكوين ذات جماعيَّة تجاوز الذات الفرديَّة.

٢- اتخذ الإمام عليه السلام نمطين من السلوك تُجاه المجتمع الكوفيّ، اتسما بالتَّنوع والاختلاف، تمثل نمط سلوك الأول باستنهاض همم أهل الكوفة؛ لنصرته في معركة الجمل، أما نمط السلوك الآخر؛ فتمثل في مرحلة خلافته الأخيرة بالتوبيخ والزجر والتعنيف، دلالةً على موت الإرادة، إذ أصبحوا من حيث البنيويَّة العقليَّة والأُسس الانثروبولوجيَّة على ثقافة واحدة، وهي أن يدعو بعضهم بعضًا بالطبائع، وليس بالقول والإشارة فقط فهم في هذه المرحلة النفسيَّة السلوكيَّة أصبحوا لا يراعون الانتباه؛ لأنَّهم فقدوا الإحساس بالحياة، بل تجرؤوا على الله ورسوله وخليفته بأفعالهم وسلوكياتهم.

٣- مارس زياد ابن أبيه على مجتمع الكوفيّ أشدّ مظاهر الاضطهاد الفكريّ، والتهجير القسريّ للإنسان من محل سكناه؛ لكونه يفكر بعقله لا بعقل غيره، ويؤمن ويحب بقلبه لا بقلب غيره، إذ تُعدُّ هذه المظاهر، فضلاً عن عوامل (الاغتراب، وتنوع الجند من العرب والعجم) من أبرز عوامل التحول الثقافيّ في بنية المجتمع الكوفيّ، إذ.تظافرت تلك العوامل والمظاهر في تشكيل الازدواجية التثاقفيّة في المجتمع، التي أدت فيما بعد إلى قتل الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه.

٤- تمثل ثنائية (الرضا والسخط) مقياس الوحدة في المصير، في مجتمعٍ تنطبق عليه معايير هذا المقياس، فإذا رضي الناس بعملٍ- وإنْ أتى به واحدٌ منهم- فهم مشتركون في حكمه، وكذلك الحال عند اجتماعهم على السخط، وهذه سنةٌ كونيةٌ، إذ ينسب العمل الصادر من فرد إلى مجتمعه، وكذلك ينسب العمل الصادر من جيل إلى جيلٍ آخر، وذلك فيما إذا كان لهم جميعًا فكرٌ اجتماعيّ واحد، وإرادة اجتماعية واحدة، فيوصفون حينها بأنَّهم ذوو روح اجتماعية واحدة.

٥- فاستعمال أسلوب (لغة الهوية) التي انتهجها عليه السلام في إظهار الفرق بين المتكلم والمتلقين، إذ لم تكن هوية الإمام الحسين عليه السلام مجموعة متغايرة، تعطي وتؤخذ من طرفها، بل كان في صيرورة واحدة ومستمرة مدى الحياة.

❖ ❖ ❖

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمينيّ (ت١٣٧١هـ)، تحقيق وتخريج: حسن الأمينيّ، دار التعارف للمطبوعات، بيروت - لبنان.
- الانثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين، السيد نبيل الحسنيّ، إصدار: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة، ٢٠٠٩م.
- تاريخ الطبري، الطبري (ت٣١٠هـ)، مراجعة وتصحيح وضبط: نخبة من العلماء، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط٤، ١٩٨٣م.
- دليل السو سيولسانيات، أندريه تابوري- كيلر، تحرير: فلوريان كولماس، ترجمة: د. خالد الأشهب، ود. ماجدولين النهيبي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط/١، ٢٠٠٩م.
- شرح ابن عقيل ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيليّ المصريّ الهمذانيّ (٧٦٩هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٥م.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزليّ (٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار أحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبيّ وشركاؤه، ط١، ١٩٥٩م.

(١) ينظر: الانثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين، السيد نبيل الحسنيّ، اصدار قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة، ٢٠٠٩م، ص/١٧٤.

- الصحاح، الجوهريّ (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط٤، ١٩٨٧م.
- علم اللغة الاجتماعيّ/ المدخل، د.كمال محمد بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط/١.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي(ت/٧٢٩-٨١٧هـ)، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشيّ، دار أحياء التراث العربيّ، بيروت- لبنان ط٢، (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).
- كامل الزيارات، القاسم جعفر بن محمد بن جعفر بن موسى بن قولويه القمي (ت/٣٦٧هـ)، صححه وعلق عليه: بهراد الجعفريّ، بإشراف: أ. علي أكبر الغفاريّ، نشر ـ صدوق. ع ـ غفاري.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٦م.
- مدخل إلى علم اجتماع الأدب، د.سعدي ضاويّ، دار الفكر العربيّ، بيروت، ١٩٩٤م.
- معجم البلدان،ياقوت الحمويّ (ت٦٢٦هـ)، دار أحياء التراث العربيّ، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٧٩م.
- مقتل الحسين، أبو المؤيد الموقف بن حمد المكيّ الملقب بالخوارزمي (ت/٥٦٨هـ) النجف، ب.ت.
- موسوعة مقتل الإمام الحسين عليه السلام، السيد محمد حسين المقرّم (ت/١٩٧١م)، دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع، ط/١، بيروت، (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م).
- نهج البلاغة، منتدى الإيمان، مركز الإشعاع الإسلاميّ، شبكة الانترنيت.

❖ ❖ ❖